باب المراسلة والمناظرة

« سوء تفاهم »

في عدد ابريل من المقتطف سرنا أن ننشر نقداً لأنها مجموعة قصص أخرجها الدكتور بشر فارس بعنوان « سوء تفاهم » ، وكان النقد بقلم الشاعر حسن كامل الصيرفي . وقد عمد الناقد الحاذق همه الى اجتلاء القصة حتى تم تأولت وسر جوهرها ولطف طريقتها ، وقد أضاف الى ذلك تحليلاً تارة واشارة أخرى للقصص واحدة واحدة بقوة وتبصر . ولما كان خروج هذه القصص حادثاً أدبياً رفيعاً في مجرى الادب العربي الحديث ولما كانت هذه القصص حقيقة بأن ينظر اليها من وجهات مختلفة ، رأينا أن ننشر هنا نقداً لها بقلم الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني (« البلاغ » ١٩٤٢/٣/١٥) ، ففيه أمران نظن أنهما يهمان القارىء ، أما الاول فحديث المازني عن شخصية صديقه بشر فارس ، وأما الثاني فتحليله الدقيق الجامع لاسلوبه

الدكتور بشر فارس صديق عزيز عليّ أثير عندي ، وأنا على وده حريص ، وبإخائه ضنين ولكني لا أحابيه ، ولا أغرر بالقارىء ، حين أقول ان كتابه الجديد « سوء تفاهم » تحفة أدبية نفيسة . وأصفه أولاً فأقول : انهُ — وأعني الكاتب لا كتابه — رجل بيته أنيق مرتب ، وعقله منظم ، ودراسته — حتى سمتها — مبوبة كأنما ، وهي في رأسه ، على رفوف لا تكلفه إلاّ مد اليد للتناول من قريب ، وهو كريم يعطي ما يجاوز حد الكفاية ، ولكن في طباعه حكمة تأبى عليه الاسراف ، وتصده عن البعثرة ، وتحميه ان يجمح به التمرد بغير عنان ، وفي جبينه وضوح ، وفي عينه سعة ، ولكن النظرة فاحصة ، والحزم يطالعك من هذه الديباجة السهلة والوجه الابيض الناعم

وما رأيت كتاباً يدل على صاحبه ، ويصوره كهذا الكتاب ، ولو كان كل قارىء يعرف الدكتور بشر كما أعرفه ، ويخالطه ، لشهد لي بالصدق ، ولشعر ان الكتاب لا ينقصهُ ان تنشر فيه لصاحبه صورة او ترجمة . هذه الاناقة في « الطبع » هي اناقة الدكتور بشر في الملبس والمطعم والمسكن في غير تكلف يثقل او شطط ينفر

وهذا « الذوق » في حجم الكتاب وخط عنواناته ، وفي فهرسه ، كأنهُ عروس محتشمة تجهز بما يجملها يوم تمضي الى وجهها — هو « ذوق » الدكتور بشر

وهذه الوجازة في الأقاصيص التي اشتمل عليها الكتاب ، والقصد في العبارة بعض آيات الحكمة التي بني عليها الدكتور بشر وصرفتهُ عن تكلف ما لا غناء له ولا محصول وراءه ، والدكتور بشر منطور على الايجاز ، لا الاقتضاب ، حيث تكفي الاشارة لا يعدوها

الى الكلمة ، واذا أخذت الكلمة المفردة اجتزأ بها عن الجملة ، واذا وجبت الجملة اجتنب الخط والنت والعجز ، وهو هكذا ابداً — في حياته ، وفي كتابته . ومن هنا ما تراه في أسلوبه من التدقيق والاحكام ومتانة البناء والاستغناء عن الحشو والزهد في الاسهاب ، كأنما يزن اللفظه بميزان صيدلاني ، او يكتب بأسلوب طبيب يخط وصفة

وللدكتور بشر اسلوبه الخاص الذي ينفرد به ، ويتميز ، وقد قلت فيه من قبل — يوم تناولت كتابه « مباحث عربية » — انه « اسلوب العالم الاديب ، فكل كلمة في موضعها وكل جملة تؤدي المراد بلا زيادة أو نقص ، وعبارته مفصلة على قدود معانيه ، تفصيلاً ليس أدق منه ولا أحكم مع الوضوح واشراق الديباجة ولطف التعبير وحسن التصرف ، ومع اجتراء العالم الواثق على المستحدثات حين يقصر الموجود عن حاجة التعبير »

بهذا وصفت اسلوبه في كتاب نهجه علمي ، ومباحثه أدبية . وما زال هذا وصفي لاسلوبه في كتابه الجديد وان كان مجموعة من الاقاصيص القصار ، والاقصوصة — كالقصة — تحوج الى رسم الشخصيات ، بايجاز او اطناب ، والى الحوار والوصف

ولا معدى عن قدر من التفاوت بين الاسلوب في القصة والاسلوب في البحث ، ولكن الدكتور بشر احتفظ بخصائص أسلوبه كلها ، وأبرزت معالجته للقصة خصائص أخرى لم يكن الى بروزها من سبيل وهو يتناول مسألة بالبحث

ويمكننا أن نقول ان الاداء عربي مبين ، ولكنه — على علو اللسان وقوة البيان — يؤثر النهج الغربي في تنظيم الكلام وتركيبه جملاً كل منها قائم بنفسه غير موصول بما يليه أو يسبقه الا من حيث المعنى . وهو في هذا يشبه اخواننا وزملاءنا أدباء العربية في المهجر الاميركي ولكنه يمتاز بالصحة والسلامة والقوة والمتانة . وكل أقاصيصه على نحو ما وصف في المقدمة :

« يجب أن تكون القصة [illegible] ... في الحياة [illegible] القصة على [illegible] في الاداء وفي التصوير [illegible] حتى تنبت من جذوة الواقع . وأما [illegible] ... [illegible] »

وأحسب ان هذا من أصدق ما يقال في الاقصوصة ، أما القصة الطويلة فلا غنى فيها ولا معدى عن مقدار من الاناة في التبيين المنطقي ، والتحليل المطرد والتمهيد للنتائج

ويقول ايضاً في وصف القصة فيجيد « فالقصة ليست للتسلية — عبثاً ان تثير القارىء وان تشغل باله » وهذا من أصدق ما يقال في وظيفة الادب على العموم . وأشهد ان قد أثارتني وشغلت بالي اثنتان من أقاصيص هذه المجموعة ، على الخصوص ، (طبق فول) و (مبروك) بارك الله في أديبنا ، وزاده من نعمة هذه القدرة التي لا يؤتاها الا الأقلّون

أما موضوع الاقاصيص فمنتزع من صميم الحياة ، وهي ، على قصرها ، ترسم لك صوراً

«مثيرة يرفعها» الكاتب قبل العيون ، متلطفاً : مترفقاً ، وأحياناً ساخراً متهكماً ، ولكنه في الحالين عطوف مخلص وسحره مصدوه الفن ، وليس من غطرسة الزراية على الضعف ، أو احتقاره ، وأحسب ان روح العطف ستقوى في قصصه على الايام ، وتزداد وضوحاً ، وانعطف من سعة الروح ومروءة القلب ، وقصة (مبروك) تشهد وحدها وبمجردها للدكتور بشر انه رجل عطوف ، وانهُ خليق ان يخلو سحره من المرارة والنقمة ، وهو خال ولله الحمد والمنة

حول كتاب «ديكارت»[1]

مراجعة ونقد وتعقيب

هذا كتاب ألفهُ اخصائي في موضوع أحبهُ وتوفر على دراسته — وتلك شروط الاتقان والنجاح . وقد آثر التأليف على النقل فاستحق الاعجاب . أجل ان للنقل صعوبته ، ولكنهُ أهون على كل حال وأخف تبعة وأسرع نتيجة . التأليف معناه ان الكاتب قد درس الاصول واسترشد بالتأويلات فحص المسائل وكوّن لنفسه في كل منها رأياً خاصّاً يتحمل تبعته . فالتأليف يقتضي شجاعة وصبراً ، ويستنفد وقتاً طويلاً . وربما كان أدعى الى الافادة . فان المؤلف الاجنبي انما يخاطب بني قومه او الغربيين عامة وهم متقاربون ثقافة ، فيتبسط فيما لا يستوجب عندنا الا الايجاز او الاغفال ، ويوجز حيث يحسن التبسط ، فاذا ما نقل كتابه الى العربية جاء غريباً على أبنائها في كثير من المواضع . فما أجمل ان يقوم فينا اخصائيون يؤلفون كما يؤلف الغربيون سواء بسواء

موضوع الكتاب خطير : هو ديكارت « أبو الفلسفة الحديثة » كما تذكر أول عبارة في المقدمة ، ومن لا يقف عند ديكارت وقفة طويلة يستهدف لعدم فهم المذاهب الفلسفية والعلمية التي جاءت بعده كما ينبغي أن تفهم . فالكتاب مدخل لاغنى عنهُ الى الفكر الحديث . وصاحبه يصدر فيه عن فكرتين جليلتين : الواحدة ان المذهب الفلسفي بذرة حية ، وهذا يعني وجوب التفحص عن البذرة أولاً ثم تتبعها في نموها وتفرعها حتى تبين لنا وحدة المذهب . والفكرة الاخرى ان كل مذهب فلسفي صادق (أي مخلص) هو عمل أخلاقي ، وهذا ينبئنا بأن المؤلف نفسه قد نظر الى عمله كما ينظر الضمير الحي الى عمل أخلاقي ، ففكر وعبر باخلاص

الباب الاول مخصص لسيرة ديكارت وهي تستغرق حوالي خمسين صفحة . وقد يجد البعض ان المؤلف أسرف في إيراد الوقائع غير أننا نرى ان هذه اول سيرة مفصلة للفيلسوف بالعربية ، وانها تضع القارىء في « جو » موضوعه إذ تعرض عليه ما اختلف على ديكارت

(١) تأليف عثمان أمين مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب (أنظر مكتبة المقتطف)

من أحوال مبينة مقتطفات من رسائله وكتبه . وما اتخذه من مواقف بازاء نزعات العصر وعلمائه ومفكريه ، فتصوره تصويراً دقيقاً

والباب الثاني يمس من جهة أخرى حي ومنعا في جوهر الموضوع ، وذلك بعرض مختلف التأويلات للمذهب في جملته . واختلاف التأويلات دليل قاطع على تركيب المذهب وخصبه ، حتى ليتساءل المؤلفون : هل كان ديكارت فيلسوفاً قبل ان يكون عالماً ، او كان عالماً قبل أن يكون فيلسوفاً ؟ وهل ميتافيزيقا عنده تابعة للفيزيقا او متبوعة ؟ وهل كان نصيراً للدين او زعيماً من زعماء حرية الفكر ؟ الى غير ذلك من الاسئلة . فيورد المؤلف الاقوال المتضاربة في الاجابة عنها ، ثم يعقب على هذه الاقوال ، فنشهد منه في التحليل احاطة واسعة دقيقة بآثار ديكارت وبما كتب عنه

الباب الثالث يصف « منهج ديكارت » وصفاً وافياً في ثلاثة فصول ، ويعالج « الشك المنهجي » في الفصل الرابع والاخير ، وهنا نرى المؤلف يضع المسألة هكذا : ان ديكارت لم يشك لمجرد الشك كاللاأدريين ، ولم يدع الى شك حاسم ، ولكن شكه منهجي مؤقت الغرض منه الوصول الى اليقين (ص ١٥٤) . على ان للمسألة وجهاً آخر هو الذي يهم الفلسفة ، وهو : هل الشك كما وضعه ديكارت بالفعل يُعدُّ شكاً منهجيّاً مؤقتاً ؟ ونحن نرى ان مد الشك الى جميع المعارف الحسية والعقلية ، وافتراض الشيطان الماكر الذي يعبث بعقولنا ويقيننا ، يخرجان بهذا الشك عن قصد صاحبه وتخيلاته شكاً حقيقيّاً لا مخرج منه ، اراد او لم يرد . ولسنا نتابع المؤلف في قوله (ص ١٤٨) « ما دامت حقيقة الفكر لم تثبت بعد عند ديكارت فلا قيمة للاستنباط ولا للحدس » فان حقيقة الفكر حقيقة واقعية ، في حين ان قيمة الحدس والاستنباط قيمة منطقية او ميتافيزيقية ، فلم يكن ديكارت مضطراً للوصول الى حقيقة الفكر حتى يؤمن بموضوعات الفكر . وقد نص المؤلف « الدافع الحقيقي الى ذلك الشك الديكارتي » وهو « محاولة الارتفاع عن مرتبة المادة وعلائق الحواس » (ص ١٥١) والاولى ان نقول « محاولة الفصل بين الفكر والموجود » محسوساً كان او معقولاً — وهذه هي « التصورية » الحديثة

واذا ما بلغنا الباب الرابع وجدنا « فلسفة ديكارت » وهو أكبر اقسام الكتاب يستغرق ثلثه ويتناول مسائل وجود النفس ، ووجود الله ، وصفات الله وافعاله ووجود العالم ، والانسان ، والاخلاق . وفي كل مسألة جمع المؤلف النصوص الرئيسية وشرحها شرحاً لطيفاً فجاءت فصوله دسمة قوية . ولا نرى ما نعرض له فيها سوى بعض الهنات . منها انه (ص ١٣٠ مثلاً) يصطنع الاقوال التي تناقل من قبل ديكارت في نقد القياس ، مثل ان « وضع المقدمة الكبرى فيه بمثابة وضع النتيجة ذاتها » وكنا نود لو انه أنصف القياس بإبراز

حقيقته كاملة ، كما كنا نود لو انهُ أنصف المنطق الأرسطو طالي وهو يعرض منهج ديكارت في الاستنباط ، فان هذا الاستنباط ان كان مفيداً في الرياضيات فقد لا تكون له فائدة عملية مذكورة في سائر نواحي التفكير. ونراه يترجم déistes بالمتألهين (ص ١٥٣ بالهامش) والمراد جماعة القائلين بالله مدركاً بالعقل وحده والمنكرين للوحي . واللفظ الفرنسي من أسوأ الالفاظ دلالة على المعنى المقصود . ويعبر المؤلف عن « المونادولوجيا » بنظرية الجوهر الفرد (ص ١٩٩) وفي هذا مدعاة للالتباس بين ليبنتز وديموقريطس . وهو يعلم تمام العلم الفرقَ بينهما . ويقول (ص ٢٦١) « يرى فيلسوفنا ان الانفعالات والأهواء طبيعية وهي في ذاتها حسنة . وهو يخالف في هذا ما ذهب اليه رجال الدين المسيحيون الذين كانوا يرون فيها نتيجة من نتائج الخطيئة الاولى التي لوّثت الطبيعة البشرية » : والمسيحية ترى ان الانفعالات طبيعية وانها حسنة حين يكون موضوعها حسناً ورديئة حين يكون موضوعها رديئاً . فمحبة الله انفعال حسن ومحبة الخطيئة انفعال رديء

هذه هنات كما قلنا . أما الكتاب فيمثل مجهوداً ضخماً في موضوع يعد من أصعب الموضوعات وأدقها ، وقد نجح المؤلف كل النجاح في تقديمه للقراء على النحو العلمي اللائق به ؛ وفي أسلوب محكم رصين حيث ينبغي ، حار رشيق حيث ينبغي ، فأضاف الى المكتبة الفلسفية العربية سفراً نفيساً ؛ وهو يشير الينا من طرف خفي انهُ الحلقة الاولى في سلسلة طويلة . فليمض على بركة الله ، موقناً ان العمل الجد واجد حتماً ما هو أهله من التقدير ، وليخرج لنا كتباً مثل هذا الكتاب يُسدي بها الى المبتدئين نفعاً جزيلاً والى المتقدمين متعة رفيعة

يوسف كرم

* * *

أشكر لحضرة الاستاذ الجليل يوسف كرم تقديره لما بذلت من جهد في اظهار كتاب بالعربية عن « ديكارت » . واذا كنت حريصاً على ان يقرأ ذلك الكتاب أفضل العلماء والباحثين ولا سيما حضرة الاستاذ صاحب ذلك التقرير — وهو فيما يعلم الجميع حجة في الفلسفة وتاريخها ، ونصدر دائماً في كل ما يكتب عن ضمير حي ودراية حقة — فاني مغتبط اذ أجد حضرته يخالفني في بعض نظراتي عن فلسفة ديكارت ، وشاكر لمجلة « المقتطف » فضلها في أن تفسح لي مكاناً للرد بإيجاز على ما جاء في كلمة الاستاذ كرم من نقد او اعتراض

قلت ان شك ديكارت ليس شكاً مذهبياً حاسماً وانما هو شك منهجي مؤقت يراد منه الوصول الى اليقين . ويرى حضرة الاستاذ الناقد ان الشك كما وضعه ديكارت بالفعل قد خرج عن قصده فأصبح شكاً حقيقياً . وجوابي ان الاولى ان يلاحظ على ذلك الشك الديكارتي المنهجي انهُ كان شكاً صورياً لا حقيقياً : اولاً لأن الفيلسوف قد استبعد من مجاله

المسائل الدينية والاخلاقية . وثانياً لانه لم يفكر في اصطناع الشك الاّ بعد حين، أعني بعد أن كان قد فرغ من تقرير مذهبه . فلم يجيء شكه نتيجة لازمة نسبية كما هو الحال عند الغزالي في مفكري الاسلام، او عند اوغسطين في مفكري المسيحية . بل كان شكه منهجاً او طريقة لجأ اليها بعد التفكير والروية . واذن فلم يكن على ديكارت من حرج في أن يهاجم جميع معارفنا من أساسها . وهو بفعله هذا لا يعرّض نفسه في المستقبل وبعده « الكوجيتو »[1] لان يفقد الوسيلة لبنائها من جديد »

وهنا نصل الى المسألة الاخرى التي يخالفنا فيها حضرة الاستاذ وهي قولنا « انه ما دامت حقيقة الفكر لم تثبت بعد عند ديكارت فلا قيمة للحدس ولا استنباط » . يعترض الاستاذ كرم على ذلك بقوله ان حقيقة الفكر حقيقة واقعية في حين أن قيمة الحدس والاستنباط قيمة منطقية أو ميتافيزيقية وهذا صحيح . ولكننا انما عنينا بقولنا أن تقرير الكوجيتو لازم للايمان بصحة العمليات الذهنية جميعاً . ولقد بينا ذلك في الجملة التي تليها مباشرة اذ قلنا : « قبل الكوجيتو أي قبل اثبات الوجود من الفكر لا شيء من عمليات الذهن يبقى سائغاً مشروعاً : اذ لا شيء منها يصح دون أن يتطلب الكوجيتو أساساً مبدئياً له »

أما القياس والمنطق الارسطوطالي فانا أحسب أني قد حدت عن سبيل الانصاف في الحكم عليه . وما قلت في نقده الاّ شيئاً يسيراً بالقياس الى ما قاله فيه من قبل الرواقيون والشكاك من قدماء الفلاسفة ، وبالقياس الى ما قاله فيه وفي المنطق المدرسي ديكارت نفسه بل والمناطقة المحدثون أمثال « لاشليه » و « جوبلو » وغيرهما كما هو معروف لحضرة الاستاذ

وأنا أعترف أن ترجمة déistes بالمتألهين ترجمة غير وافية بالمراد . ولكني لم أجد غيرها أفضل منها . وحضرة الاستاذ الناقد يأخذ عليّ تعبيري عن « المونادولوجيا » بنظرية الجوهر الفرد ، ويقول ان هذا مدعاة للالتباس بين ليبنتز وديمقريطس . وجوابي ان العرب وان كانوا قد سموا أحياناً نظرية ديمقريطس باسم نظرية « الجوهر الفرد » ، فان هذا اللفظ الاخير هو في نظري أصدق ترجمة عن نظرية ليبنتز ، والاصل اليوناني للفظ « موناد » الذي اشتق منه اصطلاح ليبنتز انما يشير الى هذا الذي اخترته ، في حين ان أدق ترجمة عربية للفظ atome في فلسفة ديمقريطس هو « الجزء الذي لا يتجزأ » كما قال العرب (فان الكلمة اليونانية « أتوموس » تفيد معنى عدم قبول الانقسام) . فحبذا لو راعى مؤرخو الفلسفة والمترجمون هذه الاعتبارات

وأود أخيراً أن أوجه الى حضرة الاستاذ يوسف كرم أصدق التحية مع الاعجاب بنزاهته في تقدير عملي ، وصدقه في حكمه وتعمقه في نقد ما رآه موضعاً للمؤاخذة عثمان أمين

(١) انا مفكر واذن انا موجود